العرب
الأربعاء 2021/08/25
السنة 44 العدد 12159

طالبان.. وانتقام المنتصر

محمد خلفان الصوافي
كاتب إماراتي

ليس من السهل أن تغيب عن أذهان الناس مشاهد ظهر خلالها الشعب الأفغاني وهو يحاول الهروب من بلاده خوفا من حكم حركة "طالبان"، لأن الذاكرة الإنسانية ما زالت تعي ما حدث خلال فترة حكمها قبل الحادي عشر من سبتمبر 2001. كما لا يمكن الاطمئنان على الوعود التي يقدمها قادتها لمستقبل البلاد خاصة أن عائلات هؤلاء القادة تعيش خارج أفغانستان، بعضها في الهند والبعض الآخر في روسيا وباكستان.

الأمان إحساس نفسي وقناعة أكثر منه ترديدا لكلمات يعرف المجتمع الدولي مغزاها. لهذا تسارع الدول إلى إجلاء مواطنيها بأقصى سرعة، وتساعد أيضا على توزيع بعض المواطنين الأفغان على دول العالم.

ما أسوأ الذكريات التي تعيد إلى أذهاننا جرائم انتقام الإنسان من أخيه الإنسان، لمجرد أنه استقوى وصار في مركز السيطرة على المجتمع. وما أتعس من ينتشي على مشاهد قتل من يختلف معه أيديولوجيا، معتقدا أنه على صواب مطلق. ومع أن للذكريات دورا عظيما ومهما في التعلم من التجارب وأخذ العبر والدروس، لكن يبدو أن هناك في الشرق الأوسط من ينسى ما حدث جراء تأييد حاملي هذا النوع من الفكر الذي لا يعرف أصحابه العيش دون قتال.

المعضلة التي تشغل شعوب المنطقة هي انتشار ثقافة الانتقام، فبمجرد أن تتمكن جماعة من الحكم تنكّل بالآخر المختلف حتى ولو كان من نفس الطائفة فقط لأنه يعبر بطريقة مختلفة عنها

القضية أو المعضلة التي ما زالت تشغل شعوب منطقة الشرق الأوسط، خاصة الإسلامية والتي تدور وتلفّ في فلكها، هي انتشار ثقافة الانتقام على طريقة "الكل يقتل الكل". فبمجرد أن تتمكن جماعة أو حزب من الحكم تمارس أشد أنواع التنكيل ضد الآخر حتى ولو كان من نفس طائفته، فقط لأنه يعبّر بطريقة مختلفة عنه، وكأننا بالحكام الجدد يريدون إفراغ المجتمع أو الدولة من كل من اختلف معهم، ومن كل من يرفضونه وفق ثقافة "أنا خيّر منه" التي أخرجت الشيطان من الجنة.

كلما استعرضنا تجربة وصول طرف من أطراف تيار الإسلام السياسي إلى الحكم، نجد أن التعامل مع الشعب في ذلك البلد يقوم على توجيه الأذية وإلحاق الضرر به. لذا على الجميع الحذر في التعامل مع تيارات الإسلام السياسي اتقاء لشرّها، فهي مجرّدة من أي مشاعر تجاه ضحاياها حتى ولو كانوا أطفالا أبرياء، كما يحدث في أفغانستان اليوم.

ما يزيد من حجم المأساة أنهم (المنتسبون لتيار الإسلام السياسي) يقومون بكل ذلك وكأنهم يتمتعون بصفات خالق الكون أو أنهم يطبقون شرعه، وبالتالي يعطون لأنفسهم الحق في أن يفعلوا بالبشر ما يريدون. أما الأصوات المؤيدة لتصرفاتهم من رجال الدين وغيرهم في أصقاع الأرض، فتتخذ من هزيمة المعتدي أو "الغزاة" مبررا، رغم أن الضحية مواطن ومسلم مثلهم. وهم في ذلك يبحثون عن ضمان يحميهم من أي عقوبة تلحق بهم في هذه الحالة.

هؤلاء الذين يصلون إلى سدة الحكم حاملين معهم فكرا انتقاميا، لا تعنيهم عادة حياة الآخر المختلف عنهم، والآخر وفق معتقداتهم لا يستحق الحياة أصلا.

لأن الأساس في فكرهم هو الإلغاء وعدم الإحساس بالعيش بأمان، وفي أفضل الحالات على الآخر أن يترك الدولة ويهاجر، لأن الدولة لا تتسع إلا لهم ولأتباعهم، أما مؤيديهم من خارج الحدود فإنهم لا يقبلون العيش معهم ويكتفون بالمشاهدة والاستمتاع والتشفي في الغير، إلى أن يأتي الوقت الذي يبدأون فيه بتصفية بعضهم البعض وفق نظرية "أنا خير منه".

الكارثة في مشهد أفغانستان أن هناك تصريحات مؤيدة لأفعال طالبان أغلبها يدور في الخفاء ولا يظهر للعلن، كما حدث عندما أيدوا هجوم الحادي عشر من سبتمبر 2001 في الخفاء خوفا من ردة فعل المجتمع، متناسين التبعات التي لحقت بعدها بالعالم الإسلامي.

حيث تبدو قدرات البعض في هذه المنطقة على التسامح والتعايش الحقيقي معدومة، لأن ثقافة الانتقام كما يبدو راسخة في تركيبتهم وربما في جينات بعض أبناء المنطقة. وبمجرد وصولهم إلى السلطة نجد أن الكل يريد أخذ ثأره والانتقام من الكل، حدث ذلك العراق وليبيا وأفغانستان وغيرها من الدول.

إن تطويع الشعوب من خلال بث الرعب والإرهاب والقتل والتنكيل والاغتصاب الذي يؤدي إلى حالة من الهروب الجماعي والاستهانة بالموت نتيجة لحالة اليأس حتى صارت الشعوب تعتقد أنه لم يعد هناك أمل أو هدف يمكن أن يعيشوا من أجله. وهذا هو الفشل الذي يمهد لعودة ثقافة الانتقام. طالبان اليوم تعطينا أفضل مثال على ما تفعله كل حركات الإسلام السياسي، فهي ما إن تصل إلى السلطة، حتى تسارع وتمهد لعودة الانتقام.

تدارك القادة في القارة الأفريقية، التي أول ما يتبادر إلى الذهن عندما يتم ذكر اسمها أنها قارة مليئة بالحروب الأهلية والفقر وغيرها من الكوارث التي تهدد حياة البشر، هذا "المسلسل الخطير" وعملوا على تجاوز هذه الثقافة. فتجاربهم في مجال التسامح والتعايش يضرب بها المثل. فقد بقي المناضل الأفريقي الراحل نيلسون مانديلا، أول رئيس أسود لجمهورية جنوب أفريقيا، حتى آخر أيامه يدافع عن فكرة التسامح والتعايش بين الشعب في جنوب أفريقيا، رغم كل الأذى الذي لحق بأهل البلد الأصليين من البيض. ورغم وجود موروث تاريخي مليء بكل أنواع الانتقام، إلا أنه أراد أن يكتب تاريخا جديدا للقارة بأكملها ونجح بعدما أقنع شعبه بأهمية التسامح للبناء والتعمير فتبعه الرئيس الرواندي بول كاغامي الذي رفع شعار "نمسح دموعنا بيد ونبني باليد الأخرى". اليوم رواندا هي من الدول التي تحظى بالاهتمام العالمي في مجال العفو.

فشل بعض المجتمعات بسبب ثقافة إلغاء الآخر التي تحولت إلى قناعة حتى صرنا لم نعد نرى أننا نحن من نمزق مجتمعاتنا بتناحرنا وتقسيم أنفسنا إلى فئات ضالة وأخرى ناجية.

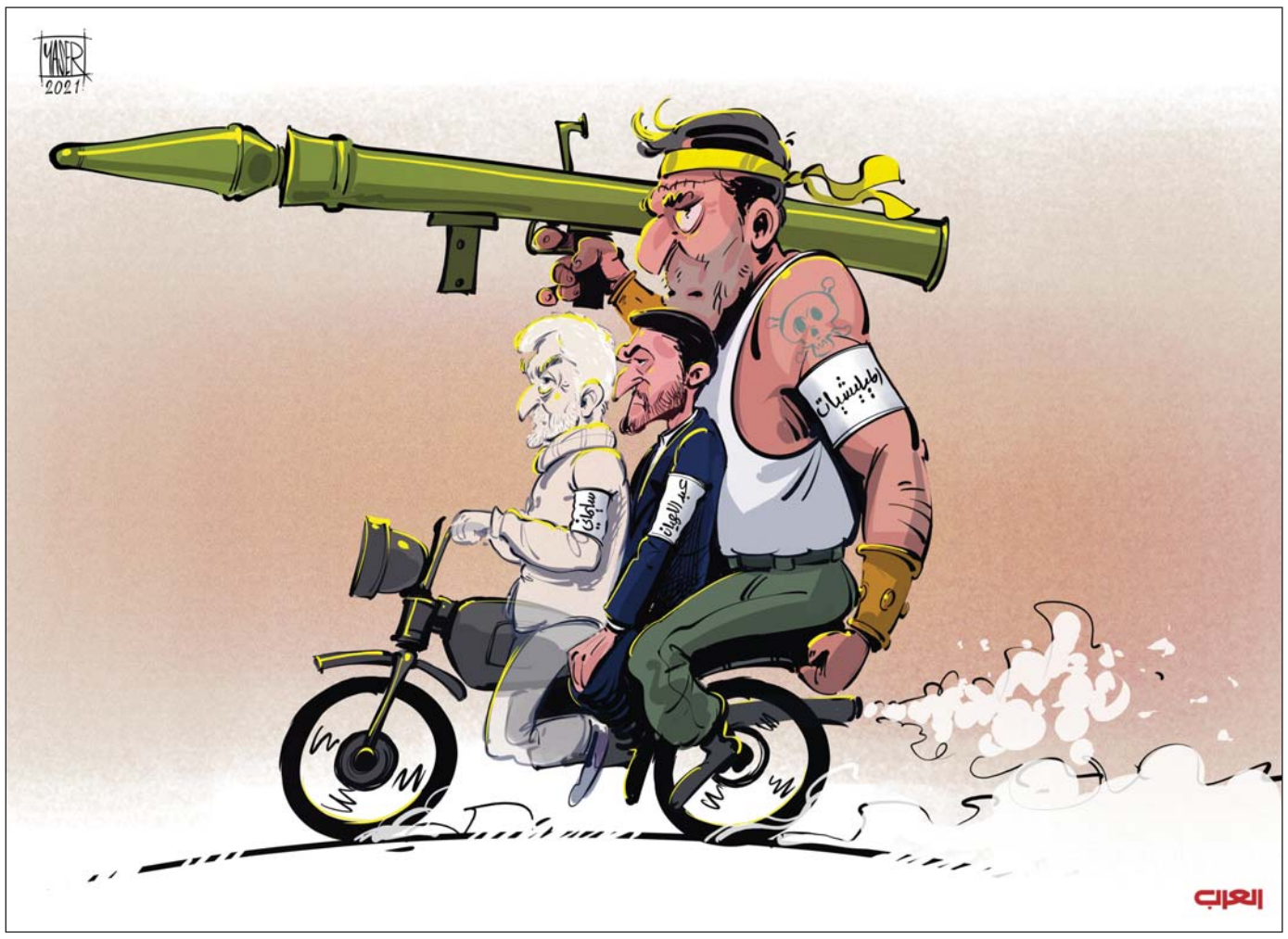

الرهانات الإيرانية الخطيرة

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

من يقرأ ما ورد على لسان وزير الخارجية الإيراني الجديد حسين أمير عبداللهيان في مجلس النواب، الذي ثبّته في موقعه، يكتشف إلى أيّ حد تبدو الرهانات الإيرانية خطيرة.

ليست خطيرة على "الجمهورية الإسلامية" فحسب، بل على المنطقة كلّها أيضا، وذلك في ضوء شعور إيران بأنّها حققت انتصارا على أميركا في أفغانستان وأنّ في استطاعتها فرض شروطها عليها.

قد لا يكون الانتصار الإيراني في أفغانستان حقيقيا، خصوصا أن العلاقة بين "الجمهورية الإسلامية" وحركة "طالبان" من النوع المعقّد. لكنّ الأكيد أنّ الإدارة الأميركية كشفت مدى ضعفها من جهة وعجزها عن امتلاك سياسية خارجية واضحة من جهة أخرى.

في ظلّ الفراغ الأميركي، تشعر إيران أنّ في استطاعتها اتباع سياسة أكثر عدوانيّة تتلاءم مع مشروعها التوسّعي. لا يمكن تجاهل أنّه كانت لهذا المشروع انطلاقة جديدة بعد الاحتلال الأميركي للعراق في العام 2003. كان من نتائج هذه الانطلاقة اغتيال رفيق الحريري في لبنان في 14 شباط – فبراير 2005 بغية الوصول إلى الوضع الراهن. يتمثّل الوضع الراهن في تحوّل لبنان مجرد محميّة إيرانية بعدما أصبح مرشّح "حزب الله" ميشال عون رئيسا للجمهورية في 31 تشرين الأول – أكتوبر 2016.

ركّز وزير الخارجيّة الإيراني الجديد على المضيّ في سياسة قاسم سليماني قائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري" الذي اغتاله الأميركيون في الثالث من كانون الثاني – يناير 2020 بعيد خروجه من مطار بغداد آتيا من دمشق. كشفت إدارة دونالد ترامب، باغتيالها سليماني ونائب قائد "الحشد الشعبي" العراقي أبومهدي المهندس أن إيران ليست سوى نمر من ورق وأن ليس في استطاعتها الردّ على ما تفعله أميركا عندما تظهر الأخيرة حزما وتصميما.

على ماذا تقوم سياسة قاسم سليماني التي يبدو أنّ عبداللهيان مصرّ على السير فيها؟ تقوم هذه السياسة بكلّ بساطة على استخدام الميليشيات المذهبية في الترويج للمشروع التوسّعي الإيراني ونشره وفرضه كأمر واقع، إن في العراق أو في سوريا أو لبنان... أو اليمن!

كلّ ما يعنيه كلام وزير الخارجية الإيراني الجديد الذي خلع القناع المبتسم، الذي كان يغطّي وجه سلفه محمد جواد ظريف، أنّ إيران مصمّمة على سياسة عدوانيّة تصبّ في المزيد من التدمير والتخريب للعراق وسوريا ولبنان واليمن. لا أفق لهذه السياسة غير نشر الفوضى التي في أساسها ميليشيات محلّية تعتمد على إثارة الغرائز المذهبيّة، ميليشيات من نوع "الحشد الشعبي" في العراق، ومجموعات مسلّحة ذات مشارب مختلفة في سوريا، و"حزب الله" في لبنان، و"أنصارالله" (الحوثيون) في اليمن.

ماذا تفعل إيران في العراق؟ تحاول إيران تنفيذ انقلاب يقوده "الحشد الشعبي". يستهدف الانقلاب إثبات أن "الجمهورية الإسلامية" استطاعت نقل تجربة "الحرس الثوري" إلى العراق. ليس ما يضمن تمكّن العراق من الصمود على الرغم من الجهود الكبيرة التي يبذلها رئيس الوزراء مصطفى الكاظمي بدعم من رئيس الجمهورية برهم صالح. لن يتقرّر مستقبل العراق في ضوء الانتخابات الاشتراعية المفترض إجراؤها في غضون شهرين. سيتقرّر مستقبل العراق في ضوء ما إذا كان الجيش العراقي سيكون القوّة المسلّحة الشرعيّة الوحيدة في البلد... أم أنّه سيبقى رديفا لـ"الحشد الشعبي"، تماما كما الحال في إيران. ليس الرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي ووزير خارجيته سوى نتاج المعادلة الإيرانية التي هيمن فيها "الحرس الثوري" على كلّ مفاصل الدولة بإشراف مباشر من "المرشد" علي خامنئي.

مطلوب استسلام العراق لإيران. ما ينطبق على العراق، ينطبق أيضا على سوريا ولبنان واليمن حيث المطلوب قيام كيان سياسي في الشمال اليمني يكون مجرّد جرم يدور في فلك إيران. مطلوب أن يكون الكيان الحوثي دولة قابلة للحياة وقاعدة صواريخ إيرانية في الوقت ذاته. صواريخ موجّهة نحو المملكة العربية السعودية وكلّ دولة من دول الخليج العربي.

كلّ ما يعنيه كلام وزير الخارجية الإيراني الجديد الذي خلع القناع المبتسم الذي كان يغطّي وجه سلفه، أنّ إيران مصمّمة على سياسة عدوانية تصب في المزيد من التدمير للعراق وسوريا ولبنان واليمن

لا واقعية للمشروع التوسعي الإيراني. يمكن لهذا المشروع أن يخلّف خرابا ودمارا، لكنّه لا يستطيع أن يوفّر أي إيجابية على أي صعيد. هذا ما أثبتته تجربة "حزب الله" في لبنان. حسنا، هناك رئيس ماروني للجمهورية في بلد يحكمه عمليا "حزب الله". أخذت هذه المعادلة لبنان إلى تحوّله دولة فاشلة لا أكثر ولا أقل. لم يعد من طموح لأي لبناني سوى الهجرة، أقلّه من أجل المحافظة على مستقبل أولاده.

عاجلا أم آجلا، سيتبيّن أنّ كلّ ما تقوم به إيران يصبّ في مشروع عبثي سيرتدّ عليها. من يستثمر في الميليشيات المذهبيّة وفي الطريق الذي سلكه قاسم سليماني هو العبث بحدّ ذاته حتّى لو استسلمت الإدارة الأميركية للشروط الإيرانية. الأكيد أن مثل هذا الاستسلام ليس خيارا أميركيا. يعود ذلك إلى أنّه إذا كانت إدارة جو بايدن تريد تفادي السقوط الباكر وتفادي سيطرة الجمهوريين على مجلسي الكونغرس في انتخابات خريف 2022، ليس أمام هذه الإدارة سوى الإقدام على خطوة ما. ليس أمامها سوى التصدّي على الأرض للمشروع التوسعي الإيراني بدءا بالعراق.

من هذا المنطلق، يبدو استعادة العراق لتوازنه داخليا وإقليميا أمرا في غاية الأهمّية. لا يمكن تجاهل أن الخلل على الصعيد الإقليمي، إنّما تسببت به إدارة جورج بوش الابن التي لم تدرك في العام 2003 أن تسليم العراق لإيران بمثابة زلزال ستبقى ترداداته تتفاعل في المنطقة لسنوات طويلة.

صحيح أن المشهد الأفغاني لا يشجّع على كثير من التفاؤل، لكنّ الصحيح أيضا أنّ لا أفق سياسيا أو اقتصاديا أو حضاريا للمشروع الإيراني الذي لا توجد مقومات لاستمراره إلى ما لا نهاية. فالفشل الإيراني كان، منذ العام 1979، اقتصاديا قبل أيّ شيء آخر. أمّا الصين التي تراهن عليها إيران حاليّا، فهي ليست جمعيّة خيرية ولديها حساباتها التي لا تتفق بالضرورة مع حسابات النظام الإيراني بحلته الجديدة التي صار أمير حسن عبداللهيان إحدى واجهاتها... بصفة كونه أحد قيادي "الحرس الثوري" ليس إلاّ.